ليلى بعلبكي

البطل

بدأت المشكلة بكلمة صغيرة : «قبّليني» .

وبدون انتباه ، اسرعت فوراً اسأله ، اداعبه : « ولماذا اقبّلك ؟ ماذا فعلت ؟ »

ثم ماتت الابتسامة في عينيّ ، وسرى فيهما توتر توزّع في كل الجسد . ورفعت نظري اليه ؛ كنت اجلس على كرسي صغير من القصب ، وكان ينتصب امامي يدير ظهره لباب المدخل ، يعض شفته السفلى ؛ فرحه برؤيتي لا زال يلمع في يديه الممدودتين صوبي ، ينحني ظهره قليلاً فوقي ، يهمّ باحتضاني . في هذه الومضة السريعة من الوقت ، استطعت ان اتخيل .

لا ، لم اتخيل . رأيت الممر الصغير خلفه قد تحول الى طريق طويل ، طويل ، يتمدد في السهول ، يخترق الجبال ، يلفّ حول الانهر ، ينحدر على شواطىء البحر ، يتغلغل في المدن الكبرى ، يتهادى في غابات الاشجار الوارفة العطرة ، ثم يقفز منها الى بيتي . وها هو وصل ؛ وصل البطل الى الحاجز الاخير ، صفقوا له ؛ قطع البطل المسافة برفة عين ؛ ها هو البطل ، سيارة السباق سليمة ؛ ها هو البطل ، وهذه هي حبيبته تهجم الى عنقه بباقة زهر ، تقبّله .

نهضت عن الكرسي ودفنت وجهي في رقبته . فهمس لي انه متعب ، لم يجد وقتاً ليأكل ؛ كان يركض كل النهار ، يطير ؛ باع بضاعة بأربعة آلاف ليرة . واوقفني امامه وحمل وجهي بيديه . حزن لم اعرفه من قبل يعصر قلبي فيؤلمني . واظنه لمح تغير اللون في وجهي ، فسألني ان كان يزعجني ان نصبح اغنياء ، فلم اجب . واذكر ان الصمت ظل

مطبقاً على فمي طوال السهرة . وكان مرهقاً ؛ نام وحده .

ولم اعد اتحمل ان يلمسني . صرت انظر اليـــه بسخرية : رجل شاب عادي ، يملك صحة متينة ، يستيقظ في الصبـــاح ، يشرب القهوة ، يستحم ، يلبس ثيابه ، ينزل الى المكتب ، يرجع ظهراً ، يتناول طعامه ثم القهوة ويستلقي قليلاً على المقعد ، ثم يذهب الى المكتب . وفي الساعة السابعة يصل من جديد الى البيت ، يشرب قدحاً من الكحول، نتعشى في مطعم في المدينة ، وندخل الى السينما او الى احد المراقص ، وننام .

والتفتّ الى الوراء ، الى ماضيّ معه ، فادهشني عدد الايام الكثيرة التي هربت ونحن ندور في مكاننا . وجننت اكثر عندما فكرت بعدد الايام الممكن ان تمر فوقنـــا ونحن ندور في مكاننا . ولم اعد اتحمل ؛ صرت اتعذب ، واتساءل ان كان هذا الرجل يعجز عن التطوع للذهاب في رحلة في الفضاء ويكون الرجل الاول الذي ينزل على سطح القمر— القمر ؟

ليته يقوم بهذه المهمة . وعلى الارض ، البشر والحيوانات والاشجار على الارض تخطف انفاسها ، ترفع اعناقهـــا الى فوق بحذر ، تراقب دورانه بين النجوم ؛ يخترق الضوء ، يتجاوزه ، يسبقه ؛ والحجارة على الارض تنحني ، الحجارة التي كانت هي الآلهة تصلي ؛ خلفها بقية الموجودات والبشر يرتلون ، يعدون بنذر كبير اذا وصل الى الكوكب سالماً ، واذا عاد اليهم سالماً يعدون بنذر اكبر . وانا على شرفة بيتي قلقة : اذا استقبلته الجموع هناك ، في القمر ، وقدمت له حسناء فاتنـــة باقة من الزهر وقبّلته ، سحرته ، اغرته بتمديد زيارته ، بأن يستوطن — ماذا افعل ؟ وتتسارع دقات قلبي ، ثم تبطىء . وها هو ، ها هو البطل يعود ؛ وتضج الاصوات ، تنبع من كل فم ومن كل شيء ومن كل مكان ؛ ها هو البطل ، ويعلو الغناء وتعلو الهتافات والموسيقى ، ويهطل الزهر من السماء ، ينبع الزهر من الارض . وارمي نفسي من الشرفة ليتلقاني بين ذراعيه ، واقبّله اقبّله اقبّله، والاصوات تشتد والحماس يقوى والارض تضج .

وبدأت تلاحقني الاصوات . ولم اعد اسمع مـــا يقوله لي ؛ صرت فقط ارى حركة

شفتيه ، واراه بين الجموع ؛ اتخيله صغيراً ، صغيراً . ولم انتبه لما يحدث له ، وما يحدث لي ؛ كنت غائبة .

وبعد مدة قليلة ، في صباح ، لم ينهض باكراً ، ولم يحضر القهوة ويوقظني لاشربها معه كالمعتاد ، ولم يرتدِ ثيابه ليذهب الى عمله .

كان يجلس على كرسي في غرفة النوم يراقبني نائمة . عندما تحركت وفتحت اجفاني ورأيته ، كدت اشهق؛ ثم اعتقدت انني احلم ، ففركت عيني ، وعدت وتمعنت بالكرسي. وبخوف سألته : « ماذا حدث ؟ » وببرود اجاب : « عندي عمل اهم هنا » . وتبسمت بخبث وانا افكر : ان كان هذا الرجل يعجز عن الانتصار في القمر ، فلماذا لا يحقق شيئاً كبيراً يغير مجرى تاريخ الارض ؟ ثم قلت له: «اتمنى ان يكون هذا العمل اليوم بطولياً». فصرخ ، ولاول مرة اسمعه يصرخ : « لا تحاولي التهرب ، اود ان اعرف سبب خوفك والكمد وارتجاف جسدك نفوراً كلما لمستك . هل هناك رجل آخر ؟ »

صعقت . فتحت عيني . ورجعت الى وعيي قليلاً . قليلاً . قليلاً : « رجـــل ؟ اي رجل ؟ » وقفزت من الفراش ، ومددت يدي الى وجهه ، وصرخت : « هل تعتقد انني اخونك ؟ انت سيء . سيء » .

وامسكني بكتفي وشدني فآلمني ، تأوهت . وبصوت مثقل بالكمد متقطع ، قال انه يعجز عن الاستمرار هكذا ، ولا – لا يمكنه ان يتحمـل المراوغة والتستر والكذب ، وانه ليس غبياً كما اظن ، واني يجب ان اصارحه ، اتركه .

وصمت . ورفع وجهي اليه ، وانتظر .

وهبطت في الحاضر . هو قذفني فيه كأنني طابة . وكالطابة صرت ارتطم بالاشياء ، ثم اعلو في الفضاء ، والمس الطاولة والجريدة فوقها ، وصحون السجاير ، ومفتاح الخزانة في الحائط ، واللمبة في السقف . ثم صرت اسمع صوت ارتطامي بالاشيـــاء ، واسمع بكاء طفل في بيت مجاور ، وزمامير السيارات في الشارع ، وهدير المصعد وهو يسحب في جوف البناية من فوق الى تحت ، من فوق الى تحت . واصبت بالدوار ، فعصرت عينيّ

ثم فتحتها ، وسمعت صوت تنفسه الكثيف ، ودقات نبضه على ظهري . وصرت ارى ؛ رأيت ارتعاش اجفانه ، والرجفة على شفتيه ، واللمعان القاسي الحاد في اغوار عينيه ، والشقاء . رأيت الشقاء على رقبته يتدلى من ذقنه ، ويتوارى في صدره ؛ فخطر لي ان الحسه بلساني من فتحة بيجامته ، واجففه الى الابد .

هزني بعنف . « تكلمي . تكلمي » .

ارتبكت ، وضعت ؛ كيف اشرح له ان ما يأكلني وينغل فيّ انما هو : هو ، هـــو الآخر ، الذي احلم ان يكونه ؟

تلعثمت ، وتمتمت ارجوه ان يفعل شيئـــاً ، ان ينقذني . فاهتاج وردد بقسوة : « انقذك ؟ انقذك ؟ » . وتذكرت المساء الذي كنت فيه معه نشاهد مسرحية ، الاسبوع الماضي بالضبط ؛ تأكدت وانا اتتبع حركة الاشخاص والحوار انني استطيع ان اخونه بكل بساطة مع مؤلف المسرحية ، ومع الممثل .

وعاد صوته يسلخني من حلمي ، ويعيدني الى وجهه الذي بدأ يزداد اغبراراً وقسوة : « ممن تريدين ان انقذك ؟ ممن ؟ » وشعرت اني اتزحلق ، انزل الى تحت ؛ يشدني هو الى هوة لا اعرفها ، يتهمني . فتملصت من قبضة يديه . وصرخت انه مختل ، وانني ارفض ان يحمل في رأسه هذه الافكار القذرة عني. «ارفض. ارفض» . وهو بلا حراك يتفحصني. بلا حراك . وبصوت خافت رجوته : « يجب ان تفعل شيئاً » . وفكرت انني لا اريد ان اخسره .

وايضاً زمجر : « ماذا افعل ؟ هل انا اظلمك ؟ هل انا اهملك؟ هل انا اجوّعك ؟ هل انا اعشق عليك ؟ »

انه يتعذب . وايضاً يبعثر افكاري . « انني اتعذب كالحيوان » . لا ، انه يتعذب كالبشر . لم اعد قادرة على ان اوصل نظري اليه . فخبأت وجهي براحتي . كيف اشرح له موقفي ؟

ولم يعطني فرصة لأستريح . عجّل يشدني من خصري ، يمد أصابعه في شعري ، يرفع وجهي في الفضـــاء ويأمرني : « والآن اعترفي . قولي الحقيقة . ماذا أصابك ؟ » فقلت : « انني اضجر » .

كأنني صفعته ، كأنني ضربته بسكين في حنجرته . اطلق « آه » عميقة ، داميـة ، خافتة ، ثم ردد على مهل وبتهكم : « هكذا اذاً ، بينما أنا أعرق وأناضل وأركض لأزيدك رفاهية وسعادة ، انت تضجرين ؟ »

لا يمكنه ان يفهم . ثم كيف اشرح له ما أعنيه ؟ سأحاول .

مرة اخرى ، لم يمنحني الفرصة ، فقال بغيظ : « وهل تريدينني ان اعمل لك مهرجاً ؟ ان أرقص الأفاعي . ان أصارع الثيران . ان أجتـاز سباحة بحر المانش . ان أصعد الى قمة هيمالايا . ان اشعل ثورة في البلاد . ان أغزو القمر . ان أقفز على رجل واحـدة . ان أنام على عامود الكهرباء . ان أتشقلب على رأسي . ان افعل كل هذا لأسلّيك ؟ »

كيف ؟ كيف يمكنه ان يخلط الاعمال الكبيرة بالاعمال المبتذلة ؟ ورماني بعيداً ، لا أجرؤ على قول الحقيقة له . سيتهمني بالجنون. ثم صرخ : « ماذا تريدين مني ان افعل ؟ »

فاغتنمت الفرصة وتشجعت وأجبت : « اي شيء غير ما كنت تفعـله حتى الآن » . فذهل ، واستحال الى تمثال ؛ ثم تحرك ودار قليلاً في الغرفة ، وأشعل سيجـارة ، وأدار لي ظهره . ثم استدار يواجهني ، يتكلم : « بقي امر واحد فشل فيه الانسان على الارض، هل تعتقدين انني مؤهل انا لأن انجح فيه ؟ »

غمرني الفرح . وبغباء سألته : « ما هو ؟ »

أجاب : « اكتشاف لقاح ضد السرطان » .

هززت رأسي بانكسار . وغمغم هو : « فهمت . فهمت . مات الحب . مات » .

لا أدري ماذا فهم . ترك الغرفة ولم يدخلها بعد ذلك ابداً ، ولم أعد اخرج منهـا . كان يسكر كل ليـلة ويعود الى البيت متأخراً ويتركه باكراً ، ولم يعد ينظر اليّ ولا يلمسني .

وفي يوم « فعل شيئاً » :

لم يرجع الى البيت ، وطلب الطلاق .

ومنذ فترة الاستقلال ، منذ اصبحت وحيدة ، وأنا أبحث عن بطل .